



OPEN ACCESS

تاريخ الاستلام: 2024-3-30

تاريخ القبول: 2024-5-20

الحنابلة في مصر قبل عصر المماليك

ترجمة: محمد كامل^(*)بقلم: جاري ليزر^(*)مراجعة محمد إياد عطون^(*)leiser.gary@gmail.comMhmdEyadAttoun@gmail.com

الملخص:

يتناول المقال الذي كتبه جاري ليزر بعنوان «الحنابلة في مصر قبل عصر المماليك» حضور وتطور المذهب الحنبلي في مصر قبل العصر المملوكي. على الرغم من الاعتقاد السائد بأن الحنابلة كانوا غائبين أو غير مهمين في مصر قبل نهاية الدولة الأيوبية في عام 1249م، إلا أن ليزر يزعم أنهم كانوا حاضرين بالفعل، وإن كان بأعداد صغيرة وتأثير محدود. ويتبع البحث وصول علماء الحنابلة الأوائل بعد وفاة أحمد بن حنبل بمدة وجيزة في عام 855م وأنشطتهم اللاحقة، في المقام الأول في مجال رواية وتدريس الحديث. ويسلط الضوء على الشخصيات الرئيسية ومساهماتها، والتحديات التي واجهتها بسبب المعارضة السياسية والدينية، والتأسيس التدريجي للمؤسسات الحنبلية. تقدم هذه المقالة فهمًا دقيقًا لتطور المدرسة الحنبلية في مصر، وتقرن بين التأثير المبكر المحدود والوجود اللاحق الأكثر أهمية، والذي بلغ ذروته بتأسيس أول مدرسة حنبلية في عام 1243م..

الكلمات المفتاحية:

الحنابلة، مصر، عصر ما قبل المماليك، المذاهب الفقهية الإسلامية، أحمد بن حنبل.

(*) الباحث في دراسات الشرق الأوسط.

(*) مدرس الترجمة المساعد بكلية الألسن، جامعة كفر الشيخ، مصر.

(*) باحث من دولة فلسطين، مهتم بالتراث الحنبلي، وطالب طب بشري في جامعة (Medical University of Lodz) في الجمهورية البولندية.

للاقتباس: ليزر، جاري، الحنابلة في مصر قبل عصر المماليك، ترجمة: محمد كامل، مراجعة: محمد إياد عطون، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج 8، ع 2، 2024، 202 - 224.

© نشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص تنزيل البحث وقراءته والتصرف به مجانًا، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان إذا ما قد أجري عليه أي تعديلات، ولا يمكن استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

OPEN ACCESS

Received: 2024-3-30

Accepted: 2024-5-20



Hanbalism in Egypt before the Mamlûks

Written by: Gary Leiser^(*)Translated by: Mohamed Kamel^(*)leiser.gary@gmail.comReviewed by: Mohammad Eyad Attoun^(*)MhmdEyadAttoun@gmail.com

Abstract:

The article "Hanbalism in Egypt before the Mamlûks" by Gary Leiser examines the presence and development of the Hanbali school of thought in Egypt prior to the Mamlûk era. Despite the general perception that Hanbalis were either absent or insignificant in Egypt before the Ayyûbid dynasty's end in 1249, Leiser argues that they were indeed present, though in small numbers and with limited influence. The study traces the early arrivals of Hanbali scholars shortly after the death of Aḥmad ibn Ḥanbal in 855 and their subsequent activities, primarily in the realm of ḥadīth transmission and teaching. It highlights key figures and their contributions, the challenges faced due to political and religious opposition, and the gradual establishment of Hanbali institutions. The article provides a nuanced understanding of the Hanbali school's evolution in Egypt, contrasting the limited early impact with the later, more substantial presence, culminating in the establishment of the first Hanbali madrasa in 1243.

Keywords:

Hanbalism - Egypt - Pre-Mamlûk Era - Islamic Law Schools - Aḥmad ibn Ḥanbal

(*) Researcher in Middle Eastern studies.

(*) Assistant Professor of Translation, Faculty of Al-AISUN, Kafr El-Sheikh University, Egypt.

(*) A researcher from the State of Palestine, interested in the Hanbali heritage, and a medical student at the Medical University of Lodz in the Republic of Poland.

Cite this article as: Leiser, Gary ,*Hanbalism in Egypt before the Mamlûks*, Translated by: Mohamed Kamel ,Reviewed by: Mohammad Eyad Attoun, *Journal of Namaa, Nama Center, Egypt*, V 8, issue 2, 2024, 202 - 224.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes.

صنّف هنري لاوست مقالين تأصيليين يستعرض فيهما تاريخ الحركة الحنبلية في العالم الإسلامي، لكنه لم يكد يحفل بوجود الحنابلة في مصر قبل مغيب شمس الدولة الأيوبية في عام 647هـ/1249م⁽¹⁾. وليس ذلك بمدعاة إلى التعجب قط، فالمصنفون المصريون أنفسهم في أواخر العصور الوسطى يوحون بأنّ مصر إمّا أنها كانت تخلو من الحنابلة قبل ذلك التاريخ، وإمّا أنّ وجودهم فيها لم يكن عظيم الأثر؛ ومثال ذلك أنّ الأدفيوي (ت. 748هـ/1347م) في معجمه لمسلمي الصعيد البارزين لم يذكر أيّاً من الحنابلة، وقد توفي معظم من ترجم لهم أثناء القرنين السابقين لوفاته⁽²⁾. ويكتفي المقريزي (ت. 845هـ/1442م) في كلامه عن المذاهب الفقهية في مصر بقوله إنّ الحنابلة كانوا خاملين الذكر حتى نهاية العصر الأيوبي⁽³⁾ ويحذو حذوه السيوطي (ت. 911هـ/1505م) إذ يذكر أنهم كانوا ثلة قليلة في مصر وأنه لم يسمع بخبرهم حتى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وفي القائمة التي أوردها لأعلام فقهاء الحنابلة المصريين، نجد أنّ وفاة أقدمهم كان في عام 623هـ/1226م⁽⁴⁾. وقد يبدو أنّ مصر إمّا أنها كانت تخلو من الحنابلة، وإمّا أنهم لم

(1) مقال (128-67), R.E.I., 27 (1959), "Le Hanbalisme sous le califat de Bagdad (241/855-656/1258)", الذي يخصص نحو صفتين لمصر؛ ومقال (28), R.E.I., (1960), "Hanbalisme sous les Mamlouks Bahrides (658/784-1260/1382)", الذي يتناول بالطبع ما بعد العصر الأيوبي. كما لم يتطرق في مقاله ("62-Hanâbila," E.I.2, III, 158) إلى الحنابلة في مصر قبل عصر المماليك. كما أنّ هذه الأعمال تتفوق كثيراً على مقال إجناتس جولدستمبر المعنون بـ "Zur Geschichte der Hanbalitischen Bewegungen," ZDMG, 62 (1908), 1-28. وللاطلاع على الإمامة حديثة للحنابلة ودراساتها، انظر: George Makdisi, "L'Islam Hanbalisant," R.E.I., 42 (1974), 211-44, and 43 (1975), 45-76.

(2) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966). يرد في صفحة (603) اسم أحد الحنابلة الذين زاروا الصعيد وتفقه عليهم أحد الأعلام الذين يذكرهم الأدفيوي، وقد توفي في مطلع القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي [قلت: يقصد نجم الدين الطوفي - المترجم]: انظر ابن رجب، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي، مجلدان (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، 1371هـ/1952م). 362/2-364. ويمكن أن يعني ذلك أنّ الشخص الذي تقدم ذكره كان حنبلي المذهب، ولكن لا يأتي ذكره في أي من كتب التراجم والطبقات الحنبلية. ولعل جماعة ممن درّسوا الفقه لأعلام آخرين في معجم الأدفيوي كانوا حنابلة، وهذا قد يدل على أنهم كانوا حنابلة مثل شيوخهم. ولكن يبدو أنّ الأدفيوي لم يدخر جهداً في ذكر مذهب كل من ذكرهم في معجمه. وقد اجتمع بالكثير ممن لم يذكر مذهبهم، وقد يدل ذلك على أنّ الانتساب للمذاهب لم يكن شديد الأهمية لأهل الصعيد. ويرد في صفحة (173) اسم أحد الحنابلة الذين أخذوا عن علم آخر من أعلام المعجم، وتوفي بالقاهرة في عام 711هـ/1312م. ولا يوجد دليل على أنّ هذا الحنبلي قد زار الصعيد في يوم من الأيام، انظر ابن رجب، الذيل، 362/2-364. انظر أيضاً الأدفيوي، ص/613.

(3) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط، مجلدان (1270هـ/1853م): أعيد طباعته، بغداد: مكتبة المثنى، [1970]، 343/2، وانظر 271/2-272، 358/1-359. وانظر أيضاً: Carl Becker, "Egypt," E.I.1, II, 19-20، وكذلك: Adam Mez, The Renaissance of Islam, trans. Salahuddin Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (Patna: Jubilee Printing and Publishing House, 1937), p. 214.

(4) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مجلدان (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، 1387هـ/1967م، 484-480/1).

يكونوا ذا بال فيما إبان العصور التي سبقت مجيء المماليك، إلا أنَّ الحال لم تكن كذلك، وسنحاول في سطور هذه الدراسة الموجزة أن نسلط بعض الضوء على نشاطهم في مصر أثناء تلك القرون.

متى قدم أوائل الحنابلة إلى مصر؟ لا جرم أنهم أخذوا يفتنون إلى وادي النيل عقب وفاة إمامهم أحمد بن حنبل ببغداد في عام 241هـ/855م. والواقع أنَّ كثيرًا ممَّن أخذوا عنه قدموا إلى مصر في حياته، إلا أنَّ المذهب الحنبلي لم يخرج إلى النور، بالمعنى الرسمي، إلا في القرن التالي لعام 241هـ/855م. وهكذا يصعب أن نحدد مدى انتشار أول من قدم منهم إلى مصر إلى الحنبلية. وفي النهاية لا يوجد من هو أعلم من محمد بن إدريس الشافعي (ت. 204هـ/820م) بابن حنبل، كما أخذ الحديث عن أحمد؛ ولهذا السبب أورده ابن أبي يعلى في طبقاته لأعلام الحنابلة⁽⁵⁾. وقد تُوفي الشافعي في مصر بعد رحلته الثالثة إليها، ونشر أصحابه مذهبه الذي سيتفوق على المذهب الحنبلي بها. ومن البين أنَّ ذا النون المصري الصوفي المعروف (ت. 245هـ/859م) قد اجتمع بابن حنبل في بغداد على إثر اتفاقهما في الإنكار على المعتزلة⁽⁶⁾. ولكن لا يسعنا أن نعهده هو الآخر حنبليًا.

وجمهرة الحنابلة الذين ورد ذكرهم في طبقات ابن أبي يعلى ورحلوا إلى مصر أو عادوا إليها من بغداد ووافتهم المنية في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي يوصفون بأنهم إمَّا حدَّثوا عن ابن حنبل أو عن أصحابه. أمَّا الآخرون، فقد قابلوه مباشرةً، وأول هؤلاء الحنابلة الذين سمعوا من أحمد ولازموه هو أحمد بن صالح المصري؛ كان أبوه من طبرستان، ولكن كان مولده هو بمصر في عام 170هـ/786-787م وتُوفي فيها في عام 248هـ/863م. وبعد أن انتهى من أخذ العلم عن ابن حنبل، أقام بمصر إلى أن تُوفي، وحدث بها وأصبح من محدِّثين الثقات⁽⁷⁾. ويروي الذهبي أنه كان علمًا في النحو والفقهاء أيضًا⁽⁸⁾. ومن المعقول أن نفترض أنه تأثر بابن حنبل في الفقه تأثرًا شديدًا، وإن صحَّ ذلك، فربما تكون تلك الحقبة هي العصر الذي شهد أولى الخطوات المبدئية للمذهب الحنبلي مكتمل الأركان في مصر.

(5) طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي، مجلدان (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، 1371هـ/1952م). 1/280-284. انظر حديث ابن الجوزي عن الشافعي في كتابه: مناقب الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الثانية (بيروت: الخانجي وحمدان، [1973])، ص/84، ص/106-108.

(6) ابن الجوزي، المناقب، ص/121.

(7) طبقات الحنابلة، 1/48-50؛ ابن الجوزي، المناقب، ص/126؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق محمد أمين الخانجي، 14 مجلدًا (القاهرة: مطبعة السعادة، 1931)، 4/195-202؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق هلموت ريتز وآخرين، 9 مجلدات حتى الآن (إستانبول: شتاتسدروكري، 1931-)، 6/424 مع الإحالات.

(8) تذكرة الحفاظ، طبعة ثالثة منقحة، 4 مجلدات (حيدر آباد، الدكن: دائرة المعارف العثمانية، 1375-1377هـ/1955-1958م)، 496-495/2.

أمَّا الحنابلة الآخرون في مصر أثناء ذلك القرن، فكل ما يسعنا أن نقوله عنهم إنهم فيما يبدو اكتفوا برواية الحديث (بسند أحمد في المقام الأول) وبجمعه⁽⁹⁾. ولكن لا يزال بوسعنا أن نجزم أنَّ الحنابلة كانوا موجودين بمصر بنهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وكانوا ينشرون مذهب ابن حنبل. لكنهم كانوا قلة قليلة؛ فلا يحصي ابن أبي يعلى إلا نحو عشرة منهم، وكان مذهبهم ضعيف التنظيم، ولا يكاد يضارع المذاهب الأخرى.

لم يكد يشهد مذهبنا أي نمو ملحوظ على مدار القرنين التاليين؛ فلا يذكر ابن أبي يعلى زيارة مصر إلا في ترجمته لثلاثة تُوفوا أثناء تلك الحقبة، وكلهم في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي؛ أولهم يوسف بن الحسين الرازي الصوفي من الري الذي حدّث عن ابن حنبل ثمّ رحل إلى مصر وأخذ عن ذي النون المصري، وتُوفي في عام 304هـ/916-917م، بل ربما لم يقضِ آخر ما تبقى من عمره في مصر⁽¹⁰⁾. والآخران، وهما من فارس أيضًا، تُوفيا عام 310هـ/923م وعام 395هـ/1004-1005م، وكلاهما رحلا إلى مصر لطلب الحديث⁽¹¹⁾. ويشير لاوست إلى أنَّ المحدّث أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني صاحب التصانيف عظيمة النفع عن الحنبلية وكان عظيم الأثر في معاصريه قد زار مصر. وكان مولده بطبرية الشام في عام 260هـ/873م وتُوفي بأصبهان في عام 360هـ/971م⁽¹²⁾.

لا يقتصر الأمر على أنَّ كتب التراجم والطبقات تكاد تسكت عن هذه الحقبة، بل إنَّ عيون كتب التاريخ التي صنّفها المصريون لا تكاد تسمن ولا تغني من جوع، إذ تكاد تخلو من أي إشارة للحنابلة⁽¹³⁾. وإيجاد السبب وراء ذلك أمر يهون، فبينما كان العراق خاضع لحكم البويهيين من

(9) عن الحنابلة الآخريين، انظر ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، المجلد الأول، ص/22، 117-118، 150، 179، 198-199 الذين سمعوا من أحمد بن صالح، ص/216-217، 233 (؟)، 229 (؟)، 235، 263 (؟)، 269، 270-269، 307-308، 337-339. ويمكن العثور على كل من تقدم ذكرهم في الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، وهو المرجع الذي أخذ منه ابن أبي يعلى كثيرًا، باستثناء المذكورين في ص/223 و229، انظر الفهارس.

(10) طبقات الحنابلة، 1/418-420؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 14/314-319. وعن الحنابلة والصوفية، انظر: Makdisi, "The Hanbali School and Sufism," *Humaniora Islamica*, 2 (1974), 61.

(11) طبقات الحنابلة، 2/51-55، 167/2 على التوالي. وعن الأول، انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 9/464-468.

(12) انظر: "Le Hanbalisme... califat," pp. 89-90؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، ثمان مجلدات (بيروت: دار الثقافة، [1968]-1972)، 407/2 مع الإحالات.

(13) مثلًا ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق أندريه فريه (القاهرة: المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، 1972)؛ ابن ميسر، أخبار مصر، تحقيق هنري ماسيه (القاهرة: المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، 1919)؛ المقرئ، تعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي، ثلاث مجلدات (القاهرة: دار التحرير، 1387-1393هـ/1967-1973م).

عام 334هـ/945م إلى عام 447هـ/1061م، نجح الحنابلة في نشر فقههم في مركزهم ببغداد وبات يضاهاي المذاهب السنية الأخرى، ولكن كان عليهم في ذلك العصر التعامل مع البويهيين الذين كانوا من ألد أعدائهم، شأنهم في ذلك شأن الشيعة. وخلاصة القول أنّ الحنابلة كانوا منشغلين في ديارهم ببغداد. أضف إلى ذلك أنّ الفاطميين بنوا دولتهم بمصر في عام 358هـ/969م وبلغوا أوج قوتهم أثناء المائة عام التالية، وهم من الشيعة، ولذلك أمسوا أيضًا عقبة أمام انتشار الحنابلة في العالم الإسلامي، ولا سيما في مصر.

وما يدعو للعجب أنّ ابن حجر العسقلاني في طبقاته لقضاة مصر يورد ترجمة قاضي القضاة أبي العباس بن محمد بن عبد الله بن العوام ويصفه بأنه حنبلي تُوفي في عام 418هـ/1027م⁽¹⁴⁾. ويقول ابن حجر إنّ مولده كان بمصر في عام 349هـ/960-961م، ومع أنه لم يكن شيعيًا، فإنّ الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ولاه قضاء مصر في عام 405هـ/1015م لأنه كان ثقة مأمونًا عارفًا بالقضاء وبأهل مصر. وكان في هذا المنصب يقضي في الأراضي الفاطمية الممتدة من المغرب وصقلية إلى الحجاز. ولم يزل على القضاء إلى أن تُوفي، وتمكن من جمع مالٍ عظيمٍ بفضل ذلك المنصب. وكان يحظى بمنزلة عظيمة عند الحاكم ثمّ الظاهر بن الحاكم. ومن نافلة القول أنه يبدو من العجب العجاب أن يولي الفاطميون هذا المنصب الرفيع لحنبلي أو أن يشغله حنبلي في ظل تلك الظروف. والإشارة الوحيدة إلى أنّ أبا العباس كان حنبلي المذهب ترد في نهاية اسمه حيث نقرأ قول ابن حجر فيه: «الفقيه الحنبلي». ولم ترد ترجمته في أي من كتب طبقات الحنابلة؛ وهذا مدعاة للدهشة والعجب لمثل هذا العلم. كما أننا نقرأ في ترجمة ابن حجر له أنّ له مصنّفًا في مناقب أبي حنيفة وأصحابه، وليس في مناقب ابن حنبل. ويورد ابن حجر ترجمة لابن عم أبي العباس، وقد تولى القضاء أيضًا، لكنه كان حنفيًا⁽¹⁵⁾. وقد وردت ترجمة أبي العباس في طبقات الحنفية لابن أبي الوفاء⁽¹⁶⁾. ومن المؤكد إذن أنّ صاحبنا هذا كان حنفيًا وليس حنبليًا؛ فما أيسر أن يخلط الناسخ بين الاثنين⁽¹⁷⁾.

(14) رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد ومحمد المهدي ومحمد إسماعيل، لم يُنشر سوى جزآن من أصل ثلاثة أجزاء (القاهرة: المطبعة الأميرية، 1957-1961/1-106-101). كما قيل إنه حنبلي المذهب في المخطوط الذي يبدو أنه أول مصدر استندت إليه هذه الطبعة، مخطوط فيض الله رقم [1455]، الأوراق/19-أب (ميكروفيلم، مشروع ميكروفيلم القرون الوسطى التابع للجنة دراسات القرون الوسطى، جامعة بنسلفانيا). أود أن أشكر الدكتور ج. دينيس هايد لاطلاعه على المخطوط عوضًا عني.

(15) المرجع السابق، 106/1.

(16) الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مجلدان (حيدر آباد، الدكن: دائرة المعارف العثمانية، [1332هـ/1914م]، 106-107).

(17) لم يشكك صمويل ستيرن في أنّ هذا القاضي كان حنبلي المذهب: Samuel Stern, "Cairo as the Centre of the Ismâ'ili Move-ment," Colloque international sur l'histoire du Caire, 27 mars-5 avril 1969, [Köln, Böhlau, 1974], p. 441 =

وأثناء حقبة موضوع الدراسة، كان السواد الأعظم من أهل السنة بمصر شافعية ومالكية، وكان الحنفية المذهب الثالث قليل الأتباع، وكان الحنابلة أبعد المذاهب عنهم آنذاك. ولا داعي للتشكيك في وجود جماعة من الحنابلة في مصر في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، لكنهم لم يتركوا أثرًا يُذكر⁽¹⁸⁾.

نجح السلاجقة في عهد طغرل بك في دحر البويهيين واستعادة المذهب السني في العراق رسميًا عام 477هـ/1061م، ودخل الحنابلة عندئذ في عصرهم الذهبي الذي دام قرنين من الزمان. كما نجح السلاجقة في تقليص أراضي الفاطميين في الشام ورفعوا سلطانهم عن الحجاز. وهذا أعان الحنابلة على التحرك بحرية، فرسخوا أقدامهم في دمشق بحلول القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، كما يتجلى في شخص أبي الفرج الشيرازي (ت. 486هـ/1094م)؛ فلم يكن من كبار المصنفين فحسب، بل كان من أشد المنكرين على الأشاعرة⁽¹⁹⁾. وكما سنرى، فما هي حتى وقع الخلاف بين الحنابلة والأشاعرة في مصر. وبنى عبد الوهاب بن الشيرازي (ت. 536هـ/1141-1142م) أول مدرسة حنبلية في دمشق⁽²⁰⁾. وبنهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، باتت الشام، ودونها الحجاز، منارات لنشر مذهب أحمد إلى مصر.

وفي تلك الأثناء، أخذ نجم الفاطميين يأفل في عهد المنتصر (427-487هـ/1036-1094م) إلى أن زال ملكهم في مصر وخارجها. وتعرّضت مصر لعدة مجاعات، وعانى جيشها من الفرقة والانقسام، ولم تسلم من فتن أخرى استلزمت في نهاية المطاف تدخل قوات خارجية لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح. وحين استتببت الأمور، وجد الخليفة أنه ما عاد إلا اسمًا، ليس له من أمر الحكم شيء، وغدت مصر منذ ذلك الحين في قبضة الوزراء، ولم يكن سوى اثنين منهم على مذهب الفاطميين: الشيعة الإسماعيلية. وكان سائرهم من الشيعة الإمامية (أو الاثني عشرية) والسنة

= ابن ظافر والمقريزي لا يذكران مذهبه، أخبار الدول، ص/53، 62، 66 والاتعاظ، 23/2، 108، 110، 118، 145، 159 تواليًا. (18) يذكر لاوست رجلًا يُقال له أبو بكر الروشاني (ت: 401هـ/1011م) ويعده شاهدًا على وجود مذهب أحمد في مصر: "Le Han-balisme... califat," p. 94. ولكن لعله خلط بين كلمة «مصراتا»، وهي قرية من أعمال العراق، وحسبها «مصر»؛ انظر ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، 2/179-180. [يقصد: أبا بكر أحمد بن موسى بن عبد الله بن إسحاق المعروف بالروشاني - المترجم]. (19) انظر: Laoust, "Le Hanbalisme...califat," p. 107؛ ابن رجب، الذيل، 1/68-73. (20) انظر: Laoust, "Le Hanbalisme...califat," p. 107؛ ابن رجب، الذيل، 1/200؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، قسم تاريخ دمشق، تحقيق سامي الدهان (دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق، 1956)، ص/255-256؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، مجلدان (دمشق: مطبعة الترقى، 1367-1370هـ/1948-1950م)، 2/66-64.

وأحدهم نصراني. وفي ظل هذه الأوضاع، أخذ أهل السنة يثبتون أقدامهم من جديد، والواقع أنهم سيستوعبون أو يقهرون أغلب مظاهر الشيعة وآثارها قبل أن يأتي صلاح الدين ويلغي الدولة الفاطمية عام 567هـ/1171م. ولذا لا تأخذنا الدهشة بظهور الحنابلة في المصادر التاريخية بأعداد أكثر نسبيًا في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

ومن أبرز تلك المصادر هو أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفِي (ت. 576هـ/1180م)؛ وصل أبو طاهر إلى وادي النيل قادمًا من الشرق عام 511هـ/1117م، وظل فيها إلى أن توفي، وكان شيخ المحدّثين في مصر أثناء القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وتولى التدريس بمدرسة الإسكندرية، أول مدرسة من نوعها في مصر. ورغم أنه كان شافعي المذهب لكنه جذب طلاب العلم من جميع المذاهب السنية، ومن مصنفاته كتاب يسمى «معجم السفر»، يترجم فيه لجميع الشيوخ وبعض الطلاب الذين أخذ عنهم أو اجتمع بهم، وهو مخصص لمن عرفهم بمصر، ولا سيما الإسكندرية⁽²¹⁾.

كان السلفي أشد حرصًا على ذكر سلسلة الرواة لمختلف الأحاديث أو شيوخ شيوخه ولذلك لم يسهب في الحديث عن الشخصيات نفسها، بل ما أكثر ما يفوته أن يذكر مذهبهم، وهذا ما يجعل معجمه مخيب للآمال بعض الشيء. لكننا نقرأ فيه أنه اجتمع بنفر من الحنابلة، أحدهم، أبو البركات ياسين بن إبراهيم المقدسي الذي فرَّ إلى مصر بعد استيلاء الصليبيين على الشام. وقد نزل بها جماعة مثله لا ريب⁽²²⁾.

ومن الحنابلة الآخرين الذين قابلهم السلفي هو جعفر بن أحمد السراج؛ من الواضح أنّ مولده كان ببغداد في أواخر عام 417هـ أو مطلع عام 418هـ الموافق لعام 1026م. وكان زاهدًا ورعًا، أنفق سنوات كثيرة من عمره في طلب الفقه، لكنه كان معروفًا بصفته مقرئًا ومحدّثًا في المقام الأول؛ فسمع ببغداد من الكثير من الثقات ولا سيما أبي علي بن شاذان (ت. 426هـ/1034م)⁽²³⁾. ورحل إلى

(21) أفضل مصدر يحدثنا عن السِّلَفِي هو: *Abū Tāhir al-Silafī al-Sher Zaman's "Abū Tāhir al-Silafī"*, with an-Ansilafī al-Sher Zaman's "Abū Tāhir al-Silafī" by al-Sher Zaman, Leiser, "The Restoration of Sunnism: Safar," Diss. Harvard 1968-Analytical Study of his Mu'jam al-Silafī. 151-81, 10-647/1101-1249," Diss. Univ. of Pennsylvania 1976, pp. 7-in Egypt: Madrasas and Mudarrisūn 495. لقد استخدمنا لمعجمه مخطوط عارف حكمت (مخطوط المدينة). 176 حديث (ميكروفيلم، بنسلفانيا).

(22) معجم، غير مرقم ولكنه مرتب أبجديًا حسب الاسم.

(23) عن أبي علي، انظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، خمس مجلدات، الجزء الثاني، والأجزاء السادس إلى العاشر المتبقية (حيدر آباد، الدكن: دائرة المعارف العثمانية، 1357-1359هـ/1938-1939م) 8/87-86؛ يقول الذهبي إنه توفي في عام =

مكة للحج، ومكث بها لطلب الحديث، ثمَّ سمع بدمشق وطرابلس ثمَّ بمصر. ومن المؤكد أنه حدَّث بمصر كما حدَّث عن أبي إسحاق الحبَّال (ت. 482هـ/1089-1090م) وأبي محمد بن الضراب⁽²⁴⁾. وقضى ابن السراج في صيدا مدةً، وعاد أخيرًا إلى بغداد حيث تُوِّفي عام 500هـ/1107م⁽²⁵⁾. ولعلَّ السلفي قد اجتمع به بالعراق وليس بمصر.

نلتقي بعد ذلك بأبي بكر محمد بن عبد الباقي المعروف بقاضي المرستان⁽²⁶⁾. كان مولده بالبصرة في عام 442هـ/1050م، وكان من عائلة عظيمة الشأن في بغداد، وكانوا مقربين من القاضي أبي يعلى الحنبلي المعروف (ت. 458هـ/1066م)⁽²⁷⁾. وتفقه أبو بكر في صغره على أبي يعلى، ثمَّ عمل بصفته شاهدًا عند قاضي قضاة بغداد أبي الحسن بن الدامغاني (ت. 513هـ/1119م)⁽²⁸⁾. بخلاف ذلك، انخرط بالعمل في مجال الحساب والحديث، وحدَّث عن معظم الثقات في بغداد، ومنهم بعض شيوخ ابن السراج. ثمَّ هذا حدو ابن السراج في سفره إلى مكة لطلب الحديث وإلى مصر حيث سمع من أبي إسحاق الحبَّال. ولعلَّه كان في أثناء سفره إلى مصر حين وقع في أسر البيزنطيين، فقيّدوه لمدة عام ونصف، وأرادوه أن يدخل النصرانية، فرفض. واستغل حقه أسرته فتعلم منهم الخط الرومي. وتكثر عنه الحكايات، وظلَّ الناس بمصر يذكرونه بعد أن عاد إلى بغداد، وتُوِّفي بها في عام 535هـ/1141م ودُفن بالقرب من قبر بشر الحافي الصوفي المعروف⁽²⁹⁾.

وهناك حنبلي آخر عُني بالحديث في مصر وهو عبد الرحمن بن النفيس الغياثي الفقيه والمقرئ المعروف بالأعز البغدادي. حرص على تعلم القرآن ومسائل الخلاف والحديث، وكان قوي الحفظ في ذلك كله. وسمع ببغداد من سعد الخير الأنصاري الذي سنلتقي بابنته وصهره بعد

= 425هـ، العبر في خبر من غير، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد، خمس مجلدات (الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، 1966-1960)، 157/3.

(24) عن الحبَّال، انظر: الذهبي، التذكرة، 3/1191-1194. وأمَّا الضراب، فيقول الذهبي إنه مات في عام 392هـ (492). المرجع السابق، 3/1024.

(25) ابن رجب، الذيل، 1/100-103؛ ابن خلكان، الوفيات، 1/357-358؛ ابن الجوزي، المنتظم، 9/151-152؛ ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، الطبعة الثانية، تحقيق الأستاذ مرجليوث، سبع مجلدات (لندن، لوزاك، 1923-1931)، 2/401-405.

(26) المرستان هو «المستشفى» في بغداد، انظر: Makdisi, "The Topography of Eleventh Century Baġdād: Materials and Notes," Arabica, 6 (1959), 192.

(27) Laoust, "Ibn al-Farrâ," E.I.2 III, 765-66.

(28) ابن الجوزي، المنتظم، 9/208-212.

(29) المرجع السابق، 10/92-94؛ ابن رجب، الذيل، 1/192-198.

قليل. وسافر إلى الشام في عام 542هـ/1147-1148م وسكن دمشق، وأمَّ بالحنابلة في الجامع الأموي. ثمَّ رحل إلى مصر وأقام بها إلى أن تُوفي بصفته محدِّثًا ومقرِّنًا وفقهًا، وكانت وفاته في عام 560هـ/1164-1165م⁽³⁰⁾.

وهذا حنبلي آخر يثير الاهتمام وهو عثمان بن مرزوق القرشي الفقيه والزاهد؛ لا نعلم أصله لكنه ارتحل إلى مصر من دمشق أو ربما من الحجاز. ويُقال إنه اجتمع في مكة بالمتكلم والصوفي المشهور، عبد القادر الجيلاني (ت. 561هـ/1166م) وأبي مدين الصوفي الأندلسي المعروف (ت. 594هـ/1197م) فألبساه الخرقة⁽³¹⁾. وصاحب عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني (ت. 593هـ/1197م) في دمشق⁽³²⁾. وعلى أي حال، فقد استقر ابن مرزوق في مصر إلى أن تُوفي، وأفتى ودرّس وناظر. والأهم من ذلك أنه كان صوفيًّا ذائع الصيت، فيقول ابن رجب فيه: «وانتهت إليه تربية المريدين بمصر». وانتهى إليه خلق كثير من الصلحاء وحبَّه عامة الناس وخاصتهم.

لا شك أنَّ قدرًا كبيرًا من شهرة ابن مرزوق إنما عمادها الكرامات المنسوبة إليه؛ فقد زاد النيل في عام ما زيادة عظيمة وكادت مصر تغرق وأيس الناس من زرع محاصيلهم في وقتها، فضجوا بابن مرزوق للتخفيف من الفيضان، فأتى إلى شاطئ النيل وتوضأ من مائه، فانحسر الماء في الحال وانكشفت الأرض. وبعد ذلك بعدة سنين، لم يجر ماء النيل وأوشك وقت الزراعة أن يفوت، فإذا بالناس يضجون بابن مرزوق، كما فعلوا من قبل، فأتى إلى شاطئ النيل، وتوضأ فيه بإبريق كان مع خادمه، فزاد النيل في ذلك اليوم. وحكى زين الدين علي بن نجا المعروف بابن نُجبة، صهر سعد الخير، أنَّ ابن مرزوق تنبأ بإخراج أسد الدين شيركوه من مصر مرتين على الأقل قبل أن يفتحها في نهاية الأمر تحت راية نور الدين. وتُوفي صاحبنا ابن مرزوق في عام 564هـ/1168-1169م، وأصبح قبره، الواقع شرق ضريح الشافعي، مزارًا⁽³³⁾.

وعند وفاة ابن مرزوق كان المذهب الحنبلي قد بات راسخ الأقدام في مصر، ولكن لم تنتسب إليه بعد جماعة كبيرة من أهل السنة، ولذلك حين قرر الوزير الفاطمي الأفضل كتيفات أن يضع

(30) ابن رجب، النيل، 1/330-331. وعن سعد الخير، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، 10/121، والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، تسعة من أصل عشرة مجلدات حتى الآن (القاهرة: عيسى الحلبي، 1383هـ-/1965م-)، 8/90.

(31) الصحيح: «ولبساً منه الخرقة» - (المترجم).

(32) ابن رجب، النيل، 1/388-390.

(33) المرجع السابق، 1/306-311.

أربعة قضاة على قضاء مصر، ولأول مرة في تاريخها، في عام 565هـ/1130-1131م (ولم يدم ذلك طويلاً)، فلم يستوجب الأمر تعيين قاضي حنفي ولا حنبلي، بل تولاه إسماعيلي وإمامي وشافعي ومالكي⁽³⁴⁾. ولكن سرعان ما سينجح الحنابلة في لفت المزيد من الانتباه لهم، ولا سيما لما علا صوتهم بالإنكار على خصومهم القدامى: الأشاعرة.

ولعلَّ أول إشارة عن وقوع خلاف على نشر مقالات الأشعرية في مصر وردت في كتاب ابن ميسر، إذ يقول إنَّ الوزير الفاطمي المأمون بن البطائي الشيعي (ت. 522هـ/1128م) قرر إغلاق دار الحكمة لأنَّ جماعة كبيرة من الناس التفت حول رجلٍ يُقال له حميد الإطفيحي، وهو يقول بكلام الأشاعرة «ثمَّ ترك الإسلام بالكلية»⁽³⁵⁾.

اشتد الخلاف بين الحنابلة والأشاعرة، وجلهم شافعية، أثناء العقود الأخيرة من حكم الفاطميين، وانتهى بالعنف والصدام. وكان من أبرز المتشددين، بل وأبغضهم، نجم الدين الخبوشاني الشافعي الأشعري (ت. 587هـ/1191م)؛ قدم إلى مصر في عام 565هـ/1169-1170م، وسرعان ما صار يخشاه أهل السنة والشيعية على حد سواء. ومن تصرفاته المثيرة للجدل نبش قبر أبي عبد الله بن محمد بن الكيزاني الشافعي. وابن الكيزاني من الشعراء النابغين، ولكن قيل إنه كان يقول بالتشبيه، وهذا سبب شهرته، فكثير أصحابه، وأنكر عليه نفر كثير من أهل السنة، ولا سيما الأشاعرة، ورموه بنشر البدع. وتوفي ابن الكيزاني قبل قدوم الخبوشاني إلى مصر بثلاث سنوات على الأقل، ودُفن بجانب الشافعي. ولكن حين علم الخبوشاني بذلك، لم يتمالك نفسه، ونبش قبره وهو يقول: «لا يكون صديق وزنديق معاً»، وجعل يرمي عظامه وعظام الموتى الذين حوله من أتباعه. ويخبرنا الذهبي أنَّ الحنابلة (الذين قبلوا آيات التجسيم في القرآن على ظاهرها)، «شدوا عليه، وتألَّبوا، وصار بينهم حملات حربية»⁽³⁶⁾.

بيد أنَّ الصلة بين ابن الكيزاني والحنابلة ليست واضحة كما قد يبدو. فقد حكى ابن رجب أنَّ فتنة وقعت بمصر بين أصحاب ابن الكيزاني وأصحاب ابن مرزوق، إذ كان ابن مرزوق يقول إنَّ «أفعال العباد قديمة» أو غير مخلوقة، وابن الكيزاني يقول: ليست قديمة. فثارت الفتن بين

(34) ابن ميسر، الأخبار، ص/74؛ المقرئ، الاتعاظ، 142/3.

(35) ابن ميسر، الأخبار، ص/64. وعن دار الحكمة، انظر: D. Sourdel, "Dār al-Hikma," E.I.2, II, 126-27.

(36) للتعرف على حياة الخبوشاني المليئة بالمشاكل، ومنها هجومه على ابن الكيزاني، انظر: 48-Leiser, "Restoration," pp. 233. انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مخطوط دار الكتب، 42 تاريخ (ميكروفيلم، بنسلفانيا)، 27، الأوراق/33-أب.

أصحاب الرجلين. واتفقوا على أنَّ السبيل لحل الخلاف إنما يكون بأن يكتبوا إلى علماء بغداد يستفتونهم في ذلك، فأفتوهم على اختلاف مذاهبهم بأن أحد الاعتقادين بدعة. فلم يرض سعد، ولد ابن مرزوق بهذه الفتوى، وقرر الرحيل إلى بغداد ليسمع من العلماء. لكن توفي أبوه قبل أن يرجع، فقرر البقاء في عاصمة الخلافة العباسية⁽³⁷⁾. فلزم الحنابلة غرز ابن الكيزاني ولكن في حدود معينة، لكنهم كانوا على استعداد للذود عن هويتهم تلك.

كان العام الذي تُوفي فيها ابن مرزوق 564هـ/1169م هو نفس العام الذي فتح فيها شيركوه مصر وأصبح وزيرها الفاطمي مدة قصيرة جدًا. ومع أنَّ شيركوه كان شافعيًا، فقد صحبه حنبلي واحد على الأقل أثناء إحدى حملاته لفتح مصر، ولعلها الأخيرة. يروي ابن رجب أنَّ هذا الرجل هو عز الدين عبد الهادي، أحد أبناء عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازي الذي عرفنا فيما سلف، أنه أول من بنى مدرسة حنبلية في دمشق. ومع أنَّ عبد الهادي يوصف بأنه كان فقيهاً، واعظاً، وسنيًا متعصبًا، فيبدو أنه كان جنديًا في المقام الأول وله حكايات عجيبة في شدة قوته؛ منها أنه بارز فارسًا من الإفرنج، فضربه ضربة قطعت ظهره وظهر الفرس معًا. ومنها أنه رفع حجرًا كبيرًا كان يغطي بئر الجامع الأموي، ومشى به خطوات، ثم رده إلى مكانه. ولكن ما يهمنا هو أنه بنى مدرسة بمصر، ولعلها كانت بالفسطاط، وكانت لتصبح أول مدرسة للحنابلة في مصر لولا أنه تُوفي قبل تمامها⁽³⁸⁾. ولن تفتح أي مدرسة حنبلية أبوابها لطلاب العلم في مصر حتى عام 641هـ/1243-1244م حين أوشكت شمس الدولة الأيوبية على المغيب.

الحق أنَّ الأيوبيين الذين كانوا على مذهب الشافعي ما فعلوا شيئاً لنصرة الحنابلة مقارنة بالمذاهب السنية الأخرى، فالمقريري يخبونا أنَّ صلاح الدين كان أشعريًا وجعل مقالات الأشعرية المعتقد الذي يُدرس في كل مدارسه، ومنها مدرسة للمالكية وأخرى للحنفية، وحتى في خانقاه «سعيد السعداء» التي بناها⁽³⁹⁾. ومن النقوش القليلة التي بقيت من مدارس مصر قبل عصر المماليك نقش من «المدرسة الصلاحية» التي بناها صلاح الدين في عام 575هـ/1180م. وكانت «الصلاحية»

(37) ابن رجب، الذيل، 1/309، 384-387. وعن سعد، انظر أيضًا: المنذري، التكملة لوفيات النقلة، أول أربع مجلدات، تحقيق بشار عواد معروف (النجف: مطبعة الآداب، 1388-1391هـ/1968-1971م)، 2/20-22.

(38) ابن رجب، الذيل، 1/370، ولا يذكر تاريخ وفاته؛ انظر: Leiser, "Restoration," Laoust, "Le Hanbalisme...califat," p. 126. يوحى إيرا لايبديوس في بحثه (Ayyūbid religious policy and the Development of the Schools of Law in Cai-) pp. 293-4. (ro," Colloque... Caire, p. 283) أنَّ مدرسة عبد الهادي قد بدأت بالعمل، ولكن لم يحدث ذلك.

(39) المقريري، الخطط، 2/343.

وقفًا للمذهب الشافعي، ولعلها كانت أكبر مدرسة في مصر أثناء الحقبة محل الدراسة. ويقول النقش الباقي منها إنها إنما بُنيت لفقهاء الأشاعرة، كما يقول إنَّ الخبوشاني حثَّ السلطان على بناءها، كما أصبح أول مدرسيها⁽⁴⁰⁾.

ظل الأيوبيون في مصر يصمُّون آذانهم عن الحنابلة رسميًا حتى عهد الملك الصالح نجم الدين (637-647هـ/1240-1249م) حين ما عاد من الممكن تجاهلهم، ومثال ذلك أنَّ الملك الكامل (ت. 635هـ/1238م) الذي كان أشعري المعتقد عنَّف أخاه الملك الأشرف موسى لميله للحنابلة في الشام⁽⁴¹⁾.

إلا أنَّ التنكر الرسمي للحنابلة لا ينفي وجود تعاون غير رسمي معهم، وحياة علي بن إبراهيم بن نجا، صهر سعد الخير، خير دليل على ذلك. كان مولد ابن نجا بدمشق في عام 508هـ/1114-1115م، وكان سبط الشيخ أبي الفرج الشيرازي الذي ربما كان أبرز شيوخ الحنابلة بالشام في عصره وقد قابلناه فيما سلف. ورحل إلى بغداد حيث سمع من أبي الحسن سعد الخير بن محمد الأندلسي وغيره. وتزوج بفاطمة بنت سعد الخير التي أصبحت أبرز محدِّثة بمصر في القرن السادس الهجري/الثاني الميلادي. كما حدَّث ببغداد ووعظ بجامع المنصور بها، ونعلم أنه اجتمع بعبد القادر الجيلاني، وما زال يحدِّث في دمشق إلى أن أرسله نور الدين إلى بغداد للترسل له في عام 564هـ/1168-1169م، وقدم إلى مصر قبل أن يوشك صلاح الدين على بناء دولته، وكان مُعظَّمًا عنده، وهو الذي حدَّر صلاح الدين من محاولة عمارة اليميني وأصحابه استعادة الخلافة الفاطمية، فتمكن صلاح الدين من وأد محاولة قلب الدولة في مهدها، فصار مقرَّبًا من صلاح الدين وأبنائه من بعده. وكان مع صلاح الدين حين فتح القدس ووعظ بها في الجمعة الأولى بعد الفتح. وفي مصر، حدَّث بالإسكندرية والفسطاط. ولعله جمع أموالًا عظيمة بفضل قربه من صلاح الدين، فكان في داره عشرون جارية، تساوي كل واحدة منهن ألف دينار، وكان يُصنع له من الأطعمة ما لا يُصنع في بيوت الملوك، ومع هذا يبدو أنه تُوفي فقيرًا في عام 599هـ/1202م⁽⁴²⁾.

لم تتأثر صداقة ابن نجا وصلاح الدين بخلافه مع شهاب الدين محمد بن محمود الطوسي الأشعري (ت. 596هـ/1200م). فقد رحل الطوسي إلى مصر قادمًا من الشرق في عام 579هـ/1183-1184م، واستقر

(40) Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, eds. É. Come et al., 16 vols. (Cairo: L'Institut Français d'Ar- انظر: (40) cheologie Orientale, 1931-64), IX, 95-96.

(41) الداودي، طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، مجلدان (القاهرة: مكتبة وهبة، 1392هـ/1972م)، 1/322-321.
(42) Leiser, "Restoration," p. 215.

بها حين كان ابن أخ صلاح الدين، تقي الدين عمر بن شاهنشاه، ينوب عنه في حكم القاهرة. وأقام مدةً في خانقاه «سعيد السعداء»، ثمَّ جعله تقي الدين مدرساً بمدرسة «منازل العز» بالفسطاط التي كان قد بناها منذ عهد قريب. وفي عام 580هـ/1184م، وبعد أربعة أشهر من التدريس بمنازل العز، وقعت الفتنة بين الحنابلة والأشاعرة، إذ أنكر الحنابلة على الطوسي تكلمه في مسألة من مسائل الكلام في مجلس وعظه، ومن الظاهر أنّ تقي الدين عمد إلى تهدئة الحنابلة «فرسم بوضع كراسي وعظ للفريقين وسمح لهما بعرض مقالتهما»⁽⁴³⁾.

وسريعاً ما أصبح ابن نجا من أعداء الطوسي، وربما شارك في الفتنة سالفة الذكر. وكان جالساً يوماً في جامع بالقرافة، فوقع عليه وعلى جماعة ممن عنده جزء من السقف، وكان الطوسي يخطب خطبة الجمعة حين حدث ذلك. والأدهى من ذلك أن يوماً ما جاء كلب يشق الصفوف، فقال ابن نجا: «هذا من هناك» وأشار إلى الطوسي⁽⁴⁴⁾.

مع أنّ الأيوبيين لم ينصروا الحنابلة، فإنّ زوال دولة الفاطميين سهّل عليهم دخول مصر ونشر مذهبهم بها. ولذلك نجد أعدادهم تتزايد سريعاً بمصر في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ومطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وأهم مصدر لدينا عن هذه الحقبة هو زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت. 656هـ/1258م) الذي يكثر ابن رجب من الأخذ عنه في حديثه عن الحنابلة في مصر.

كان مولد المنذري بالفسطاط في عام 581هـ/1185م، وسمع في صغره في عام 591هـ/1195م من أبي عبد الله الأرتاحي الحنبلي (انظر أدناه). وكان صاحبنا حنبلي المذهب في الأصل وكان معظم من أخذ العلم عنهم حنابلة. وكانت داره قريبة من مسجد الوزير ابن الفرات بالفسطاط، ويبدو أنّ هذا المسجد كان أحد مراكز الحنابلة⁽⁴⁵⁾. وقرأ القرآن على إمامه الشيخ محمود بن عبد الله المصيبي المصري (ت. 594هـ/1198م) وحضر مجلسه في الحديث⁽⁴⁶⁾. كما حضر مجالس في الحديث بهذا المسجد لعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي (انظر أدناه).

(43) المرجع السابق، ص/274-275.

(44) المرجع السابق، ص/275. [الرواية الصحيحة:... فعمل الطوسي خطبة، وذكر فيها قوله تعالى ﴿فخرّ عليهم السّفوف من فوقهم﴾. وجاء يوماً كلب يشق الصفوف، فقال ابن نجية: هذا من هناك، وأشار إلى مكان الطوسي - (المترجم)].

(45) بشار عواد معروف، المنذري وكتابه التكملة لوفيات النقلة (النجف: مطبعة الآداب، 1388هـ/1968م)، ص/30.

(46) المنذري، التكملة، 2/129-130.

وبعد ذلك سمع المنذري من علي بن المفضل (ت. 611هـ/1214م) الذي كان يدرّس في «المدرسة الصحابية» المالكية بالقاهرة، فنصحه ابن المفضل بترك مذهب الحنابلة واعتناق مذهب الأشاعرة وساعده على أن يصبح إمام «الصحابية». ولا شك أنّ المنذري مال إلى المالكية حيناً لكنه أصبح شافعياً في نهاية المطاف. ولا نعلم الظروف التي حدث فيها هذا التغيير. فقد كان رجلاً طموحاً، ولا يمكننا استبعاد السعي لعلو المنزلة كسبب دفعه إلى أن يصبح شافعي المذهب، وكانت مصر خاضعة لحكم الأيوبيين الشافعيين، فتولى في نهاية المطاف مشيخة «دار الحديث الكاملية» بالقاهرة التي بناها الملك الكامل في عام 622هـ/1225م⁽⁴⁷⁾.

صنّف المنذري كتاباً في التراجم بعنوان «التكملة لوفيات النقلة»⁽⁴⁸⁾، يترجم فيه للرجال الذين يعلم أنهم تُوفوا بين عام 581هـ إلى عام 642هـ، والكثير منهم محدّثون وكان لأكثرهم صلة بمصر. وممن يذكرهم وتُوفوا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي هو محمد بن عبد الله البرمكي الهروي الإشكيزباني، نسبة بالطبع إلى هرات وإشكيزبان، وهي قرية بين هرات وبوشنج⁽⁴⁹⁾. وكان مولده في عام 528هـ/1133-1134م وأمضى السنوات الأولى من عمره في الشرق لطلب الحديث في أماكن مثل همذان وبغداد، وقدم إلى مصر، ثمّ رحل إلى مكة حيث أصبح أبرز أعلام الحنابلة، وتُوفي عام 590هـ/1193-1194م⁽⁵⁰⁾.

وهذا حمّاد بن هبة الله الحرّاني الذي يوصف بأنه كان تاجرًا، وسفّارًا، ومحدّثًا، ومؤرّخًا. كان مولده بحران عام 511هـ/1117م، ثمّ سافر إلى بغداد وهرات ومصر لطلب الحديث، فسمع ببغداد من سعيد بن البنّاء، حفيد الفقيه الحنبلي الكبير⁽⁵¹⁾، وبمصر من السِّلفي وابن رفاعة السعدي (ت. 616هـ/1219م)⁽⁵²⁾. وحدّث حمّاد في جميع الأماكن التي زارها. وصنّف كتابًا عن تاريخ

(47) Leiser, "Restoration," pp. 366-71.

(48) الأربع مجلدات الأولى محققة، انظر ص/62، الحاشية 2. وقد استخدمنا خلاف ذلك مخطوط آيا صوفيا رقم [3163] ومخطوط المكتبة البلدية (الإسكندرية) رقم [1982 دال] (وكلاهما عبارة عن ميكروفيلم، بنسلفانيا). التكملة عبارة عن استكمال لكتاب وفيات النقلة المفقود لعلّي بن المفضل الذي يغطي الحقبة الممتدة من عام 486هـ إلى عام 581هـ، وقد كان جزءًا من سلسلة من كتب التراجم تعود إلى عصر ظهور الإسلام. وجاء عز الدين الحسيني (ت. 695هـ/1295م) فأتّم التكملة في كتابه: صلة التكملة لوفيات النقلة، مخطوط محمد باشا الكوبريللي رقم [1101] (ميكروفيلم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم 298 تأريخ). (49) *Yâqût, Jacut's geographisches Wörterbuch (Mu'jam al-Buldân)*, ed. Fredinand Wüstenfeld, 6 vols. (Leipzig: 1866-73), I 281-82.

(50) المنذري، التكملة، 397-395/1: ابن رجب، الذيل، 382-381/1، يقول إنه توفي في عام 591هـ.

(51) Makdisi, "Ibn al-Bannâ," E.I.2 III, 730-31.

(52) المنذري، التكملة، 413-414.

حران يبدو أنه لم يتمه قط، ومن المؤسف أنه لم يخرج إلى النور، ولئن وصل إلينا لأصبح من المصنفات عظيمة النفع عن تاريخ الحنابلة في الشام وفي مصر بالتأكيد. وتوفي بمسقط رأسه عام 598هـ/1202م⁽⁵³⁾.

ومن العائلات الحنبلية عظيمة الشأن عائلة المحدث الزاهد تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد الجماعيلي المقدسي؛ كان مولد عبد الغني نفسه ببلدة جماعيل قرب نابلس في يوم ما بين عام 541هـ/1146-1147م وعام 544هـ/1149-1150م. وما إن أتمَّ عامه الخامس حتى رحل إلى دمشق لطلب الحديث، ثمَّ سافر إلى بغداد عام 561هـ/1165-1166م هو وابن خاله موفق الدين ابن قدامة الحنبلي المعروف، وكان مولده بنفس البلدة وفي نفس الوقت تقريبًا، كما أنَّ عبد الغني تزوج أخت ابن قدامة. ولما وصلا إلى عاصمة الخلافة العباسية، لبثا فيها أربع سنوات، وكان عبد الغني يميل إلى الحديث وابن قدامة إلى الفقه. والأهم من ذلك أنهما حضرا حلقة عبد القادر الجيلاني الذي أشرف على عملهما، ولسوء حظهما أنه تُوفي بعد أن نزلا عنده بنحو أربعين يومًا، ثمَّ أخذ العلم معًا عن أعلام آخرين في بغداد، بل وناظرا قبل أن يعودا إلى دمشق.

وفي عام 566هـ/1170-1171م، إبان إلغاء الخلافة الفاطمية، سافر عبد الغني إلى الفسطاط والإسكندرية وأقام بهما مدة قصيرة وعاد إلى دمشق، ثمَّ رجع إلى الإسكندرية في عام 570هـ/1174-1175م وسمع من السلفي، وسمع بالفسطاط من عبد الله بن بري (ت. 582هـ/1187م)⁽⁵⁴⁾ وغيره قبل أن يعود إلى دمشق مرة أخرى. وانطلق منها لطلب الحديث بأصبهان وهمدان والموصل، لكنه شد الرحال مرة أخرى إلى دمشق حيث حدَّث وصنَّف، وكثيرًا ما كان ذلك في الجامع الأموي.

ومع أنَّ عبد الغني كان معروفًا بأنه من أعلام المحدثين والمتمسكين بالسنة وأصحاب الكرامات⁽⁵⁵⁾، فقد كثر أعداؤه من فقهاء دمشق لأنه كان يقول بأن صفات الله على الحقيقة وبأنَّ القرآن غير مخلوق، فأنكروا عليه، واجتمع الفقهاء والقضاة وأباحوا إراقة دمه، فشفع فيه

(53) المرجع السابق، 372-373/2؛ ابن رجب، الذيل، 434-434/1. يذكر المنذري حنبلين آخرين من هذا البلد، أحدهما توفي في عام 590هـ/1194م، ولا يذكر تفاصيل أخرى عنه (375-376/1)، والآخر توفي في بغداد في عام 596هـ/1200م، ويخبرنا بقائمة طويلة بأسماء شيوخه، ويقول لنا إنه عاش في دمياط مدة، وكان سفارًا ومحدثًا ومفتونًا بالجواري (203-205/2). ويذكر ابن رجب مقررًا تُوفي بمصر في عام 584هـ/1188م، ولكن قد يكون هذا التاريخ غير صحيح لأنَّ الترجمة المذكورة في قائمة من توفوا في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، 215/2، انظر أيضًا 38/2-39.

(54) H. Fleisch, "Ibn Barrī," E.I.2, III, 733.

(55) ومن المثير للاهتمام أنها تدور أيضًا حول الماء بشكل أو بآخر.

جماعة من الأمراء إلى السلطان، ويبدو أنه كان صلاح الدين، وتوسطوا في أمره، فأخرج إلى مصر. ونجح في البداية في ترك أثر طيب في نفوس المسلمين في بلده الجديد، ولكن ما هي حتى أنكروا عليه، إذ رماه الشافعية والمالكية والحنفية بإفساد عقائد الناس والابتداع والكفر. وكان من أصحاب ابن نجا ولعل ذلك لم ينفعه، علاوة على ذلك، فإن شخصية عبد الغني الحادة زادت من مشاكله العقديّة. فقد هاج يومًا بدمشق في عهد الأفضل بن صلاح الدين (ت. 622هـ/1225م) وكسر الملاهي. ومن المؤكد أنّ نشاطه في مصر، بل مجرد وجوده بها، قد ساهم في خلق الأجواء التي جعلت العزيز بن صلاح الدين وخليفته على مصر (ت. 595هـ/1198م) يفكر في إخراج الحنابلة من مصر. ثمّ انتقد الملك العادل (ت. 615هـ/1218م)، الذي خلف العزيز، في وجهه غير مرة، ومن الواضح أنّ السلطان كان يهابه. ولذلك كان العادل متعاطفًا مع أعداء عبد الغني، بل يُقال إنّ بعضهم بذل في قتله خمسة آلاف دينار. وأُجبر صاحبنا الحنبلي على عدم الخروج من داره مدّة وكان على وشك أن يُخرج إلى المغرب حين توفي في عام 600هـ/1203م، ودُفن بالقرافة مقابل قبر ابن مرزوق⁽⁵⁶⁾.

نعرف ثلاثة من أبناء عبد الغني، أولهم أبو الفتح محمد، وكان مولده بدمشق في عام 566هـ/1170-1171م، ومن المفترض أنه صحب أباه في سفره، ويقول ابن رجب إنه سمع بدمشق ورحل إلى بغداد في عام 580هـ/1184-1185م ليسمع فيها. ولا بدّ أنّ هذا كان حين سافر عبد الغني شرقًا للمرة الثانية لأنّه يُروى أنه كان في أصبهان بعد عام 590هـ/1193-1194م. وسمع بمصر من البوصيري (ت. 598هـ/1201م)⁽⁵⁷⁾ وغيره، ولكن يصعب تحديد المدة التي أقامها بها. وكان من المقربين من المعظم بن العادل، وقد يدل ذلك على أنه لم يكن شخصية جدلية مثل أبيه. وكانت وفاته بدمشق في عام 613هـ/1217م⁽⁵⁸⁾.

تكاد تكون حياة أبي موسى عبد الله تشبه حياة أخيه أبي الفتح، فكان مولده في عام 581هـ/1185-1186م، ويُروى أنه صحب أبي الفتح في سفره إلى بغداد وأصبهان، وهذا ربما يعني أنّ مولده كان بدمشق وأنه كان صغيرًا جدًّا في هذه الرحلة. ولكن من المفترض أنه طلب الحديث

(56) المنذري، التكملة، 22-19/3؛ ابن رجب، الذيل، 34-5/2؛ انظر: Carl Brockelmann, GAL, I, 356, S, I, 605-06. وعن إخراج

الحنابلة، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 14 مجلدًا (القاهرة: مطبعة السعادة، 1351-1358هـ/1932- [39] 19م، 13/18.

(57) المنذري، التكملة، 330-326/2.

(58) المرجع السابق، 254-252/4؛ ابن رجب، الذيل، 92-90/2.

في هذه المدن ثمّ بدمشق حيث تفقه مع ابن قدامة، وسمع بمصر من فاطمة بنت سعد الخير وأبي عبد الله الأرتاحي. وسافر إلى العراق مرة أخرى حيث حدّث عن ابن الجوزي. ولم يزل يطلب الحديث في اربيل، والموصل، وواسط، ونيسابور، والحجاز. وحدّث بدمشق ومصر. وشارك في معركة طرد الصليبيين من دمياط حين أغاروا عليها من عام 615هـ/1218م حتى عام 518هـ/1221م. لاحقًا بنى الملك الأشرف، أحد أبناء العادل «دار الحديث» في دمشق وولاه مشيختها، لكنه تُوفي في عام 629هـ/1232م قبل تمامها⁽⁵⁹⁾.

وأصغر الإخوة هو أبو سليمان عبد الرحمن الفقيه الزاهد؛ كان مولده في عام 583هـ أو 584هـ/1187-1188م. سمع بدمشق ولم يزل يسافر حتى وصل إلى مصر ليسمع من البوصيري وأبي عبد الله الأرتاحي وإسماعيل بن ياسين (ت. 596هـ/1200م)⁽⁶⁰⁾. لا يمكننا أن نحدد المدة التي أقامها بمصر لأنه ظهر أيضًا في بغداد، ولعلّه كان مع أبي موسى، ودرس مع ابن الجوزي. والأهم من ذلك أنه حرص على التفقه على ابن قدامة ولازمه في الجامع الأموي في مجلس الحنابلة، وكانت وفاته بدمشق في عام 643هـ/1246م⁽⁶¹⁾.

ولعلنا نذكر أخيرًا حفيد عبد الغني، أبي محمد عبد الرحمن بن محمد، الذي أصبح من أعلام المحدّثين. فكان مولده في عام 602هـ/1205م، وسافر إلى بغداد، ودرس مع ابن قدامة، كما قدم إلى مصر وأقام بها مدة مع تلاميذ السلفي، وتُوفي بدمشق في عام 661هـ/1263م⁽⁶²⁾.

وخرج بيت آخر جدير بالذكر من أرتاح، وهي بلدة غربي حلب. وكان أول من تصدر المشهد منها أبو عبد الله محمد بن حمد بن حامد الأنصاري، وكان مولده في نحو عام 507هـ/1113-1114م وسمع بمصر وحدّث بها. ولا نعلم أنه خرج من مصر إلا مرة واحدة وكانت للحج. وكما رأينا، فقد كان أول من حدّث عنهم المنذري، وكانت وفاته بمصر في عام 601هـ/1205م⁽⁶³⁾.

وهذا أبو الثناء حامد بن أحمد بن حمد، ابن أخ أبو عبد الله، كان مولده بمصر في عام

(59) المنذري، التكملة، مخطوط المكتبة البلدية، ص/114-115؛ ابن رجب، الذيل، 2/185-187؛ الذهبي، التذكرة، 4/1408-

1410. وعن الدار، انظر: النعيبي، الدارس، 1/19-47.

(60) عن ابن ياسين، انظر: المنذري، التكملة، 2/242-245.

(61) الحسيني، صلة، أوراق/22ب-23أ؛ ابن رجب، الذيل، 2/231-232.

(62) الحسيني، صلة، ورقة/139أ؛ ابن رجب، الذيل، 2/276-277؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، مخطوط أحمد 3 رقم [2920] (ميكروفيلم، بنسلفانيا)، 18، ورقة/189.

(63) المنذري، التكملة، 3/107-109؛ ابن رجب، 2/38.

533هـ/1139م. ومع أنه سمع بمصر وسمع بمكة، مدّة قصيرة، فقد عُرف بأنه كان مقرّناً، إذ تصدر للإقراء بجامع عمرو في الفسطاط وفي «مدرسة السديد الطيب» المطلة على النيل⁽⁶⁴⁾. وظلّ يؤم بالمسجد المعروف به بكوم الجراح شمال شرقي جامع عمرو إلى أن تُوفي في عام 612هـ/1215م، ودُفِنَ في مقبرة العائلة⁽⁶⁵⁾. لم يُذكر صراحةً أنّ أبا الثناء كان حنبلياً، ولكن لا شك أنّ ابنه أبا العباس أحمد كان حنبلي المذهب. وكان مولده في عام 574هـ/1178-1179م وسمع من أبي عبد الله الأرتاحي (ويقول ابن رجب إنّ الأرتاحي كان جده) والبوصيري وابن ياسين وابن نجا وعبد الغني المقدسي ولازمه. لكنّه عُرف كأبيه بأنه كان مقرّناً وخلفه في الإقراء بمسجد عمرو، وتُوفي بمصر في عام 659هـ/1261م⁽⁶⁶⁾.

وأخر عائلة يجمع بنا ذكرها هي عائلة العالم الجليل ابن قدامة نفسه. رغم أنه لا يوجد دليل على أنّ ابن قدامة قد زار مصر، ولكن لا شك أنه كان عظيم الأثر في الحنابلة بها بفضل ما صنّف وبفضل تلاميذه الذين قدموا إليها⁽⁶⁷⁾. كما كان له أقارب رحلوا إلى مصر بخلاف عائلة عبد الغني. ولعلّ أهمهم أخاه أبا عمر محمد؛ فقد كان مولده بقرية جماعيل في عام 528هـ/1133-1134م، ورحل إلى دمشق مع أهله في عام 551هـ/1156-1157م بعد أن عدا الصليبيون على قريتهم، وسكنوا نحو سنتين بمسجد أبي صالح⁽⁶⁸⁾، ثمّ انتقلوا إلى جبل قاسيون القريب حيث بنوا ما يشبه الدير الحنبلي.

سمع أبو عمر بدمشق من أبيه ومن أبي الفتح عمر بن علي بن حمويه (ت. 636هـ/1239م)، وهو مدرس من عائلة سياسية مهمة في مصر⁽⁶⁹⁾، وسمع من جماعة آخرين. ثمّ رحل إلى مصر وسمع بها وحدّث لجماعة أمثال عبد الغني والمنذري، كما قرأ النحو بمصر على ابن بري. وقد اعتنى أبو عمر بالفقه وأنفق سنوات طوال في نسخ الكثير من تصانيف الحنابلة والصفوية ثمّ تركها لغيره. وكان معروفاً بالزهد ولعلّه عد نفسه صوفياً، وكان متقشفاً وله كرامات يطول ذكرها.

(64) عن هذه المدرسة، انظر: Leiser, "Restoration," pp. 294-96.

(65) المنذري، التكملة، 4/149-150.

(66) الحسيني، الصلة، الأوراق/204ب-205أ؛ ابن رجب، الذيل، 2/273-274.

(67) للتعرف على تفاصيل حياته، انظر: Laoust, Le Précis de droit d'Ibn Qudāma (Beirut: Institut Français de Damas, 1957), 78-82.

(68) Makdisi, "Ibn Qudāma al-1950," pp. xx.

(69) عن المسجد، انظر: ابن شداد، الأعلام، ص/136-137؛ النعيمي، الدارس، 2/101-103، 343.

(69) Hans L. Gottschalk, "Die Aulad Šaiḥ aš-šuyūḥ (Banū Ḥamawiya)," WZKM, 53 (1957), 78-82.

لا يمكننا تحديد المدة التي أقامها أبو عمر في مصر، لكننا نعرف أنه كان بالقدس حين فتحها صلاح الدين في عام 583هـ/1187م، وكان صاحبنا على وفاق مع السلطان الأيوبي، ولعلّ هذا ما حبه في دمشق أكثر من غيرها، فبني فيها مدرسة في جزء من دير عائلته وتُوفي بها في عام 607هـ/1210م⁽⁷⁰⁾.

سافر واحد على الأقل من أبناء أبي عمر إلى مصر، وهو أبو بكر عبد الله؛ كان مولده بدمشق في عام 578هـ/1183م، وسمع بها، وسمع ببغداد حيث كان ابن الجوزي أحد شيوخه، وبمصر حيث عمل مع البوصيري وأبي عبد الله الأرتاحي وفاطمة بنت سعد الخير. وتفقه على والده، وعمه ابن قدامة. وخطب مدةً بجامع قاسيون المعروف بجامع الحنابلة ودُفن بجواره في عام 643هـ/1245م⁽⁷¹⁾. وينبغي أن نشير إلى أنّ أحد إخوانه، ألا وهو أبو محمد عبد الرحمن (ت. 682/1283م)، وهو ممّن سمعوا من تلاميذ السلفي، صار أول من يتولى قضاء دمشق من الحنابلة⁽⁷²⁾.

كما طلب أحد أبناء ابن قدامة العلم في مصر كما طلبه في غيرها، وهو أبو المجد عيسى؛ لا نكاد نعرف عنه سوى أنه تفقه وسمع بدمشق ثم بمصر من نفس المحدّثين الذين سمع منهم أخوه أبو بكر عبد الله. وعاد إلى دمشق حيث اجتمع بالمنذري، وأصبح خطيب وإمام الجامع المذكور آنفًا على جبل قاسيون، وتوفي في عام 615هـ/1218م⁽⁷³⁾. وما يهمننا أنّ بني قدامة، ولعلمهم كانوا أهم عائلة حنبلية خارج بغداد، لخير دليل على قوة العلاقة بين حنابلة دمشق وحنابلة مصر.

وفضلاً عن تقدم ذكرهم، فقد خرج عشرات الحنابلة إلى النور ونشطوا في مصر بشكل أو بآخر أثناء العصر الأيوبي، ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نذكر بضعة أسماء منهم: أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله البغدادي (ت. 604هـ/1207م) تلميذ حفيد ابن البيّن⁽⁷⁴⁾؛ وأبو منصور

(70) المنذري، التكملة، 326-328/3: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ثمان مجلدات، الأجزاء 1-2 (حيدر آباد، الدكن: دائرة المعارف العثمانية، 1370هـ/1951-1952م)، الجزء 1، ص/546-553. وعن مدرسته، انظر: ابن شداد، الأعلام، ص/259؛ النعيمي، الدارس، 100-112.

(71) الحسيني، صلة، ورقة/30ب-131؛ ابن رجب، الذيل، 234-235/2: لا يذكر ابن شداد أنه كان خطيب هذا الجامع (الأعلام، ص/86) ولا النعيمي (الدارس، 435-437/2). كان هذا الجامع معروفاً أيضاً بجامع المظفري أو جامع الجبل.

(72) ابن رجب، الذيل، 304-310/2: ابن طولون، قضاة دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد (دمشق: المجمع العلمي العربي، 1956)، ص/273؛ انظر: 41-Laoust, "Le Hanbalisme...Mamlouks," pp. 40.

(73) المنذري، التكملة، 325-326/4: ابن رجب، الذيل، 143/2.

(74) المنذري، التكملة، 195-196/3.

عبد السلام بن عبد الوهاب (ت. 611هـ/1214م) الذي وعظ بمصر وهو حفيد عبد القادر الجيلاني⁽⁷⁵⁾؛ وأبو القاسم تمام بن عبد الهادي (ت. 620هـ/1223م) تلميذ السلفي، وكان واعظاً وهو ابن الرجل الذي حاول بناء أول مدرسة حنبلية في مصر⁽⁷⁶⁾؛ وأبو محمد عبد المحسن بن عبد الكريم (ت. 625هـ/1228م)، وهو من أصحاب المنذري وسمع من كل من عبد المجيد سالف الذكر وابن الخبوشاني⁽⁷⁷⁾؛ وأبو الفرج عبد الرحمن بن نجم الدين الشيرازي (ت. 634هـ/1236م)، الذي وعظ بمصر، وهو حفيد أول من بنى مدرسة حنبلية في دمشق⁽⁷⁸⁾؛ وأبو محمد يوسف بن عبد الرحمن البغدادي وابنه أبو الفرج عبد الرحمن. والأخيران هما ابن وحفيد ابن الجوزي تواليًا. وقد تولى أبو محمد يوسف عدة مناصب مهمة في عهد الخليفة في بغداد. وقُتل هو وابنه حين سقطت المدينة على أيدي المغول في عام 656هـ/1258م⁽⁷⁹⁾.

أمّا أبناء العائلات الأقل شهرةً، فربما نذكر منهم أبا الغنائم مسافر بن يعمر (ت. 620هـ/1223م)، وكان صوفيًا أمّ بالمسجد الذي يدرب القرويين بالفسطاط، ومن الواضح أنه انتقل إلى نفس المسجد الذي أمّ به أبو الثناء حامد الأرتاحي⁽⁸⁰⁾. ولا بدّ أنّ المسجد الأخير كان من أهم مساجد الحنابلة في مصر. وهذا أبو بكر عبد العزيز بن أحمد (ت. 630هـ/1233م)، شيخ المنذري وكان تاجرًا وشهد عند قاضي قضاة الشافعية أبي القاسم عبد الملك بن عيسى درباس (ت. 605هـ/1209م) وخلفائه⁽⁸¹⁾؛ وأبو عبد الله محمد ابن الديبشي (ت. 632هـ/1234م)، وكان مولده بحران وهو تاجر وتلميذ آخر للسلفي، وأقام بالإسكندرية معظم حياته⁽⁸²⁾؛ مكي بن عمر (ت. 634هـ/1237م) الذي

(75) المرجع السابق، 4/109-111؛ ابن رجب، الذيل، 2/71-73.

(76) المنذري، التكملة، مخطوط آيا صوفيا، ورقة/149.

(77) المنذري، التكملة، مخطوط المكتبة البلدية، ص/38-39؛ ابن رجب، الذيل، 2/172.

(78) المنذري، التكملة، مخطوط المكتبة البلدية، ص/185-186؛ ابن رجب، الذيل، 2/193-201.

(79) عن الاثنين، انظر: الحسيني، الصلة، ورقة/118-119أب؛ ابن رجب، الذيل، 2/258-262.

(80) المنذري، التكملة، مخطوط آيا صوفيا، ورقة/147. عن المسجد الأول، انظر: ابن دقماق، كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار، تحقيق كارل فولرز تحت عنوان: Description de l'Égypte par Ibn Doukmaq, 2 pts. in 1 (1893; rpt. Beirut: The Trading Office for Printing, Distributing, and Publishing, n.d.), pt. 1, p. 87. وعن الثاني، انظر المرجع السابق وكذلك: Paul Casanova, Essai de reconstitution topographique de la ville d'al-Foustât ou Misr (Cairo: L'Institut Frangais d'Archeologie Orientale, 1916-19), pp. 51-53, 150.

(81) المنذري، التكملة، مخطوط المكتبة البلدية، ص/133؛ ابن رجب، الذيل، 2/187. عن قاضي القضاة، انظر: ابن حجر، رفع، الجزء 2 ص/367-370.

(82) المنذري، التكملة، مخطوط المكتبة البلدية، ص/156.

سمع من ابن بري والبوصيري وأبي عبد الله الأرتاحي في مسجد معروف به بالفسطاط في شارع البقالين⁽⁸³⁾؛ وأبو طالب عبد الله بن إسماعيل (ت. 634هـ/1237م)، واعظ آخر⁽⁸⁴⁾.

لعلّ تأثير الحنابلة المتنامي بمصر في عهد الأيوبيين قد توجّج بافتتاح أول مدرسة حنبلية في عام 641هـ/1243-1244م. واللافت أنّ الذي بناها هو السلطان الملك الصالح نجم الدين نفسه، ولهذا سُميت باسم «المدرسة الصالحية» نسبة له، وكان ذلك بمثابة اعتراف رسمي بمذهبنا هذا. بيد أنّ الحنابلة لم يهتموا بالمدارس كما اهتمت بها المذاهب السنية الأخرى، فقد بيّن مقدسي أنهم أثروا التدريس في المساجد التي لم يسيطر عليها الحكام كما سيطروا على المدارس⁽⁸⁵⁾. وكما رأينا، فقد رسّخ الحنابلة أقدامهم في عدة مساجد بمصر؛ فمن الأولى بنا إذن أن نعد بناء هذه المدرسة دليلاً على أنّ السلطان أدرك أنه قد آن الأوان لفرض قدر من السيطرة عليهم.

كانت «الصالحية» في الواقع عبارة عن أربع مدارس في مبنى واحد (مدرسة لكل مذهب سني)، وكان شمس الدين أبو بكر محمد بن إبراهيم المقدسي أول شيخ حنبلي تولى التدريس بها؛ وكان مولده بدمشق في عام 603هـ/1206م، وسمع بها من ابن قدامة وتفقه عليه، وكان أبوه ابن عم ابن قدامة. كما حدّث صاحبنا عن ثقات آخرين بدمشق ثمّ ببغداد، وكان ممن سمع منهم ببغداد الشيخ شهاب الدين السهروردي الصوفي (ت. 632هـ/1234م).

تفنن شمس الدين في علوم أخرى بجانب الحديث في عاصمة الخلافة العباسية، وتزوج بها

(83) المرجع السابق، ص/200-201؛ ابن رجب، الذيل، 214/2-215. وعن مسجده، قارن: ابن دقماق، الانتصار، الجزء 1، ص/87 وكذلك: Casanova, Essai, p. 159.

(84) المنذري، التكملة، مخطوط المكتبة البلدية، ص/203-204؛ ابن رجب، الذيل، 215/2-216. بالنسبة للحنابلة الآخرين، انظر المنذري (الإحالات المقابلة في ابن رجب بين قوسين)، 3/276-275 (48/2)، 4/160 (86-82/2)، 4/251 (90/2)، 4/352-351 (109/2)، مخطوط آيا صوفيا، ورقة/138أ (124-123/2)، ورقة/138ب (125-124/2)، ورقة/142ب (128/2)، ورقة/147أ-ب (167-166/2)، مخطوط المكتبة البلدية، ص/101-102 (184-182/2)، ص/268-267 (224-223/2)، ص/287-286 (224/2). أمّا من كانت وفاتهم بعد عام 641هـ/1243م، انظر الحسيني، صلة (الإحالات المقابلة في ابن رجب بين قوسين)، ورقة/4ب (227-226/2)، الأوراق/6أ-ب (227/2)، ورقة/8ب (226/2)، الأوراق/22ب-23أ (232-231/2)، الأوراق/125، 30، 30، الأوراق/31أ-ب (240-236/2)، ورقة/31ب (240/2)، الأوراق/32ب-33ب، 35أ-ب، 47ب، 58ب (245-244/2)، الأوراق/92ب-93أ، 100أ، ورقة/201أ (273-269/2)، ورقة/164ب (278/2)، ورقة/181ب (282-281/2). انظر أيضاً: ابن رجب، 280-281، 285-286. يذكر الديمياطي جماعة من المذكورين أعلاه ولعله ذكر غيرهم، ولكن من المؤسف لم يتسنّ لنا الاطلاع على كتابه (مخطوط في تونس)، ولكن انظر: Mu'ḡam aš-Šūyūh de 'Abd al-G. Vajda, Le Dictionnaire des autorités (Mu' min ad-Dimiyāṭi (Paris: Éditions du Centre National de la Recherche Scientifique, 1962).

(85) Ibn 'Aqil et la résurgence de l'islam traditionaliste au XIe siècle (Damascus: Institut Français de Damas, 1963), p. 530.

وأُنجب. ورحل إلى مصر نحو عام 640هـ/1242-1243م، وأقام بها إلى أن تُوفي، ويكاد يكون قد تولى كرسي الحنابلة بالصالحية فور نزوله بأرض مصر، كما تولى كرسي خانقاه «سعيد السعداء»؛ وقد كان هذا المنصب حكراً على الشافعية حتى ذلك الحين. ولعلك تذكر أنّ صلاح الدين كان قد أمر بأن تكون الأشعرية المعتقد الذي يُدرس بهذه الخانقاه الصوفية، ولكن لا يوجد ما يدل على أنّ شمس الدين تخوّف من تولى مشيختها، ولا نعلم الظروف الدقيقة التي كانت تحيط بذلك القرار، ولكن يمكن اعتباره محاولة من السلطان لتقويض المذهب الشافعي إلى حدٍ ما الذي كان شديد القوة؛ والرأي الآخر، وهو الأرجح، أنه كان محاولة من السلطان للاعتراف بقوة الحنابلة المتنامية والسيطرة عليها.

وعلى أي حال، سرعان ما أصبح شمس الدين شيخ الحنابلة في مصر. والواقع أنّ المماليك حين تولوا حكم مصر، شعر السلطان بيبرس بضرورة زيادة عدد من يتولون القضاء بمصر من قاضي واحد إلى أربعة قضاة من عام 661هـ/1263م وحتى عام 662هـ/1264م، وهكذا أصبح شمس الدين أول قاضي قضاة حنبلي بمصر، ولكن عزله بيبرس في عام 670هـ/1271-1272م من منصب قاضي القضاة. وذهب الجنود إلى داره وقبضوا عليه ولبث في السجن سنتين، ويُروى أنّ ذلك إنما كان «بسبب بعض الواجبات التي كان عليه تأديتها». ويُروى أنّ الصاحب الوزير الكبير بهاء الدين علي بن محمد، المعروف بابن حنّا، كان متحاملاً عليه ولعله هو من حرّض السلطان على ذلك. ولما خرج من السجن، لزم داره، ولم يزل يفقه ويحدّث ويقرئ ويفتي إلى أن تُوفي في عام 676هـ/1277م. ودُفن بمقبرة القرافة بجانب خاله عبد الغني المقدسي⁽⁸⁶⁾.

ينبغي أن يتضح مما تقدم أنّ الحنابلة، رغم قلة عددهم، كانوا ينشطون بمصر قبل وقوعها في قبضة المماليك أكثر مما كنا نظن، فقد ظهروا في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي في عصر ابن حنبل ولا يزالون بها حتى اليوم. وخرجوا إلى النور أثناء المئة عام الأخيرة من الدولة الفاطمية وفي عهد الأيوبيين. وانصب اهتمامهم على الحديث، وحافظوا على علاقاتهم بالصوفية، كما أحضروا معهم صراعهم مع الأشاعرة. وبزغ نجم عدة عائلات حنبلية، ولا سيما عائلة ابن قدامة. كما سلطت تلك العائلة الضوء على قوة العلاقة بين حنابلة دمشق، وحنابلة بغداد بعض الشيء، وحنابلة مصر. ولا جرم أن الحنابلة كانوا من أعمدة الحياة الدينية في مصر قبل عصر المماليك بحقبة طويلة وقبل سقوط بغداد في أيدي المغول الذين دفع العديد منهم إلى الفرار إلى الغرب.

(86) انظر: Leiser, "Restoration," pp. 358-60.